«قال الله: ليكن نور، فكان نور».

(تكوين 1: 3)

هذا كان اليوم الأوّل.

وكلّمهم أيضًا يسوع وقال:

«أنا نور العالم. مَن يتبعني لا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة»

(يوحنا 8: 12)

«والمدينة لا تحتاج إلى الشمس والقمر ليضيئا لها، لأن مجد الله أضاءها وسراجها هو الحمل».

(رؤيا يوحنا 21: 23)

«إن آدم قد اشترك هو أيضًا في هذا التنوّر الإلهي الوضّاء قبل السقوط. ولأنه كان بالحقيقة متسربلاً بحلّةٍ من مجد، لم يكن عريانًا، ولم يكن غير محتشمٍ بسبب عريه».

(غريغوريوس بالاماس)

«وبنورك نعاين النور»

لقد ارتأى بعض عظماء المفكّرين أنه لولا اللّيل لا وجود للنهار، وأنه لولا الشرّ لا مكان للخير؛ أي النقيض يعطي حياةً لنقيضه. فمن المنطق والبداهة أن النور، لكي يسطع، يجب أن يسبقه الظلام، وإذا كان لا بدّ من الحياة فلا بدّ أيضًا من الموت. النقيض موجود وظاهر ويأتي بسبب النقيض.
أما تعليم المسيحية، وخبرتها وتراثها فيقول غير ذلك. ليس النور وليد الظلام، ولا الظلام يلي النور. لكلّ واحد منهما خصائصه التي يمتاز بها وتعطيه اسمه. كيف يُمكن للنور أن يخلق ظلامًا؟ أو للظلام أن يلد نورًا؟ ما الظلام إلا انحباس النور أو عدمه. النور لا يؤتى منه إلا نور؛ إنه انبلاجٌ وشروقٌ. وبهذا النور الخالق تتقارن الأنوار المخلوقة ويُبان بهتانها، ليس لأن النور الخالق هو المعيار أو المقياس فحسب بل لأننا منه ننجذب وإليه نرتقي وتتوق الرؤية.

هكذا أيضًا يُجاز القول عن الحياة والموت، الخير والشرّ. إننا نحيا لأن الحياة الحقّة هي التي تُحيينا؛ هي التي قذفت فينا نسَمة الحركة، الحرية والحب؛ ليس لأن مطاف الإنسان الموت والاضمحلال لا بد من الحياة أن تكون موجودة وحاضرة. فنحن لم نبدأ لأن لنا نهاية، ولن ننتهي لأننا قد بدأنا في زمن ما. إنما بدايتنا لأن الخالق أعطانا حياةً من فرط محبته كي نحيا أبدًا؛ كي نكون شركاء مع «الحياة» في عمل الحياة؛ من «الحياة» ومعها نحيا كي نصل إلى الحياة.

أما الخير والشرّ، فإننا لا ننفي وجود الشرّ، إنما هو مسيطرٌ لأن قلوب الجموع وكياناتها لم تكتنز الخير. إن عدم صنع الخير يعطي مجالاً للشرّ والفراغ أن يلهوا بمخيّلاتنا. إنما في الأساس، في الأصل، كانت الخليقة، عندما أدخلها الخالق حيّز الزمان والمكان، كانت حسنة لأنها من صُنعه، من نُطق كلمته- «كُن فكانت».

إن أي نور ضئيل وخافت يمكنه أن يُضيء ظلامًا. أما أي نور، حتى ولو كان وهجًا، فيُميَّز ببهتانه وبضآلته أمام نور أقوى. فكيف بالحري عندما يوضع أمام النور الخالق؟ هكذا نحن، يُمكننا أن نكون أنوارًا تسطع، إلا أننا نبقى أنوارًا خافتةً جدًا. ولكننا بانجذابنا إلى النور الحقيقي، يُمكننا أن نتدرّج من نور إلى نور لأننا نتسربَل بهذا النور ويلفنا ويغطينا فيغدو رويدًا رويدًا لباسنا؛ «من مجدٍ إلى مجدٍ» كما

يقول القديس غريغوريوس اللاّهوتي. مع ذلك فإننا لن نتشابه بل نحترق ونخفي أبصارنا ووجوهنا ونحن نتحرّق إليه حتى وإن أصبحنا أنقياءَ وأصفياء الله.

«أنتم نور العالم... فليُضئ نوركم قدّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويُمجّدوا أباكم الذي في السموات»[1]. هكذا أرادنا النور الحقيقي. لقد أرادنا أن نُشعل، نؤجّج، نُلهب ونضيء طريق الآخرين كي لا يسيروا في الظلمة؛ كي ينقادوا وينجذبوا بدورهم إلى النور الحقيقي؛ كي «يروا ويُعاينوا النور». لكن من أين لنا هذا؟ كيف نقدر أن نصبح أنوارًا؟ كيف يمكننا أن نتلألأ ونبقى متسربلين بالوَهج؟

لقد دعا السيد كلّ مَن تبعه وتتلمذ عنده، أي كلّ مَن استمع إليه وأطاعه وسار وراءه، أن هذا التلميذ هو نور العالم. وذلك للصلة بين المستمِع والمستمَع إليه. إنه من شروط الاستماع في اللغة اليونانية واللاتينية «الطاعة» لأن التفسير الحرفي لكلمة الطاعة في هاتين اللغتين هو الاستماع[2]. وهذه التسمية أتت بعد أن فتح يسوع فاه وعلّمهم أن يكونوا: «فقراء الروح، ودعاء، جياعًا وعطاشًا للبِرّ، رحماء، أطهار القلوب، ساعين إلى السلام ومضطهَدين من أجل البِرّ»[3]. إن النور الذي سنسطع به أمام الناس ليس نورنا الخاصّ بل نحن نستمدّه ونلبسه من النور الحقيقي، من نور المسيح. إنه هو الذي من فرط محبته، تحنّنه ورحمته فتح أعيننا وأذهاننا كي نسترق من هذا البهاء الذي لا يخبو. هو هو لا يتغيّر، إنما يشفق علينا ويرحمنا. إننا بحدّ ذواتنا لسنا انفجارات نور إنما ومضات تتلألأ وتشتعل بالنور الإلهي. فباستماعنا وطاعتنا لكلمات النور وجعلها تنسكب فينا نستنير وننير. هذا الاستماع (هذه الطاعة) هو الصلة والامتداد؛ إنه السرّ الذي تنتقل فيه التجلّيات فيتشبّه التلميذ بالمعلّم؛ كلما اقترب المستمِع من المستمَع إليه يتوق إلى المزيد وأن يعاين أكثر وأكثر، فيمسح عن عينيه الغشاوة ويعمّدها بدموع التوبة فتتنقى البصيرة وتتقرّب بانبهار ورعشة واندهاش. ولكن أيننا نحن من المعلّم؟ وأيننا من التشبّه به؟ لذلك نحن دائمًا في سعي دؤوب وعمل متواصل بالصلاة والصوم ورجاء نعمة الله ورحمته.

إننا بنوره فقط نعاين النور وليس هناك نور آخر. كل الأنوار الأخرى زائلة، وما يُستمَد منها زائل أيضًا. نحن نستنير ونشع فقط لأننا نستمد من النور الأبدي الذي لا يعروه مساء أو ظلام. «خذوا نورًا من النور

---

[1] متى5: 14 و16

[2] الأسقف كاليستوس وير، كيف تقرأ الإنجيل، في: Orthodox Study Bible New Testament and Psalms, Thomas Nelson Publishers,.Nashville, Tenessee.

[3] متى5: 3-10.

الذي لا يعروه مساء». ننشد هذه الترنيمة في عيد القيامة بلحن جميل وبتقوى فائقة. وليس بنور وليد الظلمة؛ بنور يأتي في حين ويذهب في حين، إنما بنور أبدي باقٍ أبدًا، وضاءًا يعمل دائمًا في المنجذبين إليه، محولاً إياهم ومتجلّيًا فيهم، واهبًا إياهم نورًا على نور.

على جبل التجلّي انبهر التلاميذ الثلاثة، إنهم هم ذواتهم التلاميذ الذين كانوا يُعاينون السيد كل يوم بل حتى قبل دقائق من صعودهم الجبل. لقد انبهروا ووقعوا أرضًا من شدّة ونصاعة النور، وهذا أيضًا كان بقدر ما، كما تقول ترنيمة العيد «على حسبما استطاعوا». فالتقرّب من النور هو ارتقاء دائم حتى اللقاء والعناق بمقدار ما. هذه هي النعمة الرحيمة. إنها تهبّ أبدًا، ولكن محدودية الذي يعبّ منها تحدّد قدر الاستطاعة، وبذلك لا يكفّ عن الاستماع والطاعة كي يستزيد من النور. وفي ذلك يقول القديسون: «بما فينا من نور المسيح نقدر أن نعاين الأشياء كما يراها المسيح»، أو «بما فينا من الروح القدس ننظر إلى الأشياء نظرة الله إليها».